

٢- النهضة القومية العامة

في أوروبا وفي الشرق

للدكتور عبد الرزاق السنهوري

عميد كلية الحقوق ببغداد

وإذا كانت حركة الرابطة الوطنية بقيت قوية عنيفة في أوطان طوال القرن التاسع عشر كما قدمنا ، فإن هذه الحركة قد اقتصرت بها حركة رابطة الجنس ، ولم تتعارض الحركتان . فان الرومانسي والوطن الايطالي والوطن الاسباني ، وغير هذه الأوطان اللاتينية ترعرعت واشتدت ولم تتعارض مع الجاهل اللاتينية ؛ على أن اتفاق رابطة الوطن مع رابطة الجنس يراهنا أخذاً إذا انتقلنا إلى الشعوب الجرمانية ؛ فشكل شعب وطنه ؛ وكثيراً ما حاربت بروسيا في الماضي دولا آخر جرمانية ؛ وكثيراً ما حاربت النمسا وانتصرت عليها ، ومع ذلك فان الشعوب الجرمانية لا ينسبها الاغراق في وطنيتها أو تنسب جميعاً إلى جنس واحد ، وأن دماً واحداً يجري عروق الجميع

على أن ائتلاف رابطة الوطن مع رابطة الجنس يختلف في وضعها . فالرايطان أضف ما تكونان ائتلافاً إذا كانت رابطة الوطن قوية متماسكة ، تستطيع القيام على رجليها دون حاجة ، معين ؛ والمثل لذلك الوطن الفرنسي والوطن الايطالي ، والرابطة أقوى ما تكونان ائتلافاً إذا ضعف وطن ، فيستمسك بوجه آخر قوى من جنسه ، كما هو الحال بين النمسا وألمانيا ، وكذلك إذا كان كل وطن ضعيفاً بذاته قوياً باجتماعه مع الأوطان الأخرى من جنسه ، كما هو الحال بين الأقطار العربية ؛ وأخيراً إذا اندمج جنسيات متعددة في أمبراطورية واحدة ، ثم أخذت هذه الأمبراطورية المصطنعة في الانحلال ، فان حركة الجنسيات تقوى في هذه الحالة ، ويتمنخض عن حركات استقلالية ، كما وقع في الأمر للأمبراطورية النمساوية وللأمبراطورية النمساوية

النزعة . الرجل الذي ينفجر في التاريخ كلما احتاجت الحياة إلى إطلاق قنابلها للنصر

والماديات هي الماضي الذي يعيش في الحاضر ، وهي وحدة تاريخية في الشعب ؛ تجمعهم كما يجمعهم الأصل الواحد ؛ ثم هي كالدين في قيامها على أساس أدبي في النفس ، وفي اشتغالها على التجريم والتحليل ؛ وتكاد عادات الشعب تكون ديناً ضيقاً خاصاً به ، يحصره في قبيله ووطنه ، ويحقق في أفراد الألفة والتشابه ، وبأخذهم جميعاً بذهب واحد : هو إجلال الماضي وإجلال الماضي في كل شعب تاريخي ، هو الوسيلة الروحية التي يستريح بها الشعب أبطاله ، وفلاسفته ، وعلماءه ، وأدباءه ، وأهل الفن منه ؛ فيوحدون اليه وحش عظائمهم التي لم يبلغها الموت ؛ وبهذا تكون صورهم العظيمة حية في تاريخه ، وحيته في آماله وأعصابه

والماديات هي وحدها التي تجعل الوطن شيئاً نفسياً حقيقياً ؛ حتى يشعر الانسان أن لأرضه أمومة الأم التي ولدته ، واقومه أبوة الأب الذي جاء به إلى الحياة . وليس يعرف هذا إلا من اغترب عن وطنه ، وخالط غير قومه ، واستوحش من غير عاداته ؛ فهناك هناك يثبت الوطن نفسه بمظمة وجبروت كأنه وحده هو الدنيا وهذه الطبيعة الناشئة في النفس من أثر الماديات هي التي تنبه في الوطني روح التميز عن الأجنبي ، وتوحش نفسه منه كأنها حاسة الأرض تنبه أهلها وتندرم الخطر

ومتى صدقت الوطنية في النفس ، أفرقت كل شيء أجنبي في حقيقته الأجنبية ؛ فكان هذا هو أول مظاهر الاستقلال ، وكان أقوى الذرائع إلى المجد الوطني

وباللغة والدين والماديات ، ينحصر الشعب في ذاته السامية بخصائصها ومقوماتها ؛ فلا يسهل انتزاعها منها ولا انتسافها من تاريخه ؛ وإذا ألبس إلى حال من القهر ، لم يتخذ ولم يتضع ، واستمر يعمل ما تملله الشوكة الحادة ؛ إن لم تترك لنفسها ، لم تعط من نفسها إلا الوسخ

(ملطفا)

سنهوري

* بقية المحاضرة الأولى من سلسلة المحاضرات التي ألقاها الأستاذ السنهوري في مدينة بغداد في شهر أمانة العاصمة في ٢٣ مارس سنة ١٩٣٦

كان يقول بالشيوعية في الملكية وفي الأسرة ، ووضع كتابه «الجمهورية» يؤيد فيه هذا المذهب . وقام في أوائل القرن السادس عشر توماس موراً يقول بالشيوعية في المال دولت الأسرة ، في كتابه « جزيرة أوتويا » . ولكن الاشتراكية لم تأخذ شكلاً علمياً منظماً إلا بقلم زعيمها الأكبر كارل ماركس نبي الاشتراكية في أواسط القرن التاسع عشر

والاشتراكية فلسفة علمية ولها خطط عملية . أما فلسفتها فنظرة مادية إلى وقائع التاريخ ، وتفسير هذه الوقائع تفسيراً اقتصادياً محضاً . وهذا ما يسمى عادة بالمادية التاريخية أو بالتفسير الاقتصادي للتاريخ . أما خطتها العملية فقد انقسم أنصارها بالنسبة لها إلى فريقين : فريق معتدل يقول بالعمل في الدائرة الدستورية ، والوصول إلى الحكم من طريق النظم النيابية المشروعة ، أى اتخاذ الديمقراطية وسيلة لتحقيق الحكومة الاشتراكية . وفريق متطرف يقول بعدم الجدوى من كل هذه الخطط ، ولا بد من الثورة والانتفاض على الديمقراطية الرأسمالية وهدأركان النظام النيابي ، والاستيلاء على الحكم بالقوة ، حتى تتحقق الحكومة الاشتراكية . وكان كارل ماركس قد أسس الدولية الأولى في سنة ١٨٦٤ في لندن ، حتى يجمع شتات العمال من جميع أطراف العالم . ثم لما انقسم أشياعه إلى الفريقين المتقدمي الذكر ، أسس الفريق المعتدل الدولية الثانية ، وأسس الفريق المتطرف الدولية الثالثة ، وهي دولية موسكو المعروفة

وأقول لكم كلمة موجزة عن المادية التاريخية أو التفسير الاقتصادي للتاريخ ، حتى تفهم المذهب الاشتراكي من ناحيته الفلسفية . تلخص هذه المادية التاريخية في فكرة جوهرية ، هي أن الحاجات المادية للإنسان والعوامل الاقتصادية التي تحيط به هي التي تسيّر التاريخ وتكيّف الحوادث . وكل حوادث التاريخ ومراحله المتعاقبة لا يمكن تفسيرها إلا تفسيراً اقتصادياً ؛ وليس للإنسانية إلا تاريخ واحد ، هو تاريخها الاقتصادي المادي ؛ أما الدين ، وأما الأخلاق ، وأما النسل العليا ، وأما المنظمة والبطولة ، فكل هذا شيء سرده إلى المادة ، تحكمه وتسيطر عليه . فالذهب الاشتراكي ينظر إلى الحياة كوحدة لا تقبل التجزئة وهي وحدة المادة لحتمها وسداها

وقد آن لنا أن تنتقل إلى المرحلة الثالثة في النهضة القومية وبية ، وهي المرحلة الحاضرة ، وقد بدأت منذ فجر القرن رين ، وبنوع خاص بعد الحرب الكبرى

الوقت الحاضر : رابطة الوطن والجنس ورباطة الطبقات
نشهد في الوقت الحاضر في أوروبا صراعاً عنيفاً ما بين لتين ، وكفاحاً مستمراً ما بين نظامين من نظم الحكم . أما بطنان فاحدها رابطة الوطن وتمزجها رابطة الجنس ، والثانية طبقات أو الحركة الاشتراكية . وأما النظامان فاحدهما النظام الديمقراطي ، والآخر هو النظام الدكتاتوري

وما بنا أن نمنى بحركة ضيقة ولدت عرجاء بعد أن تخضت بالآلام الانسانية من أهوال الحرب الكبرى ، وتلك هي رابطة البشرية ، تنظم بني البشر كافة في جامعة واحدة ، يسمونها يوم بمصبة الأمم . فان رابطة البشرية هذه لا تزال وليداً بين حياة والموت ، فلندع لها بالبقاء ولنتركها جانباً ولنستعرض الكفاح الذي نشهده الآن في أوروبا بين رابطة وطن ورباطة الطبقات

ليس هذا الكفاح وليد القرن العشرين ، بل هو قد بدأ منذ القرن التاسع عشر ، وقد تعقبنا أصوله في لحة سريعة عند ما كنا نتكلم في تقدم الصناعات الكبرى الذي قوى هاتين الرابطين المتناقضتين . والآن نمرض لهذا الكفاح في شيء من التفصيل ، فنتكلم في الاشتراكية وقد قامت على رابطة الطبقات ، ثم نتكلم في الفاشية والنازية . وقد قامت الأولى على رابطة الوطن والأخرى على رابطة الجنس

١ - الاشتراكية

بدأت الاشتراكية تتأصل جذورها في أوروبا منذ القرن التاسع عشر . وقد نبئت في تلك التربة الصناعية التي سبق لنا ذكرها ، إذ كثر عدد الطبقات العاملة ، واستغلهم أصحاب رؤوس الأموال استغلالاً تأباه الإنسانية . فوجدت الاشتراكية جواً صالحاً تترواح فيه وتزدهر . على أن المذهب الاشتراكي لم يكن وليد القرن التاسع عشر ، فهو مذهب قديم ، يمكن أن نرجع أصوله إلى أفلاطون الفيلسوف اليوناني المعروف ، وقد

فالعامل الاقتصادي هو الذي أوجد البورجوازية ، والبورجوازية هي التي أوجدت المال ، والمال هم الذين سيهدمون البورجوازية وقد كتب كارل ماركس في منشوره المشهور إلى الحزب الاشتراكي سنة ١٨٤٨ : « إن البورجوازية لم يقتصر على صنع الأسلحة التي ستقتلهم ، بل هم هيأوا أيضاً الرجال الذين سيضربون بها الأسلحة »

قيام البورجوازية وسيطرتهم على العالم الاقتصادي وسقوطهم بعد ذلك على يد المال ، كل هذه حوادث تدفع إلى الإنسانية دفماً من طريق العوامل الاقتصادية ؛ فالرجال إذا مسخرون ، علموا أو لم يعلموا ، لخدمة حاجات اقتصادية اقتضت البيئة التي يعيشون فيها ، وهم يظنون أنهم يعملون لأغراض مادية . فلوتر مثلاً كان يعتقد أنه يعمل لمجد المسيح ، والواقع هو الأمر أن نورته لم تكن إلا سداً لحاجة البورجوازية الألمانية التي كانت تستغلها الكنيسة الرومانية . وليس الرجال في نشاطهم بوجه عام إلا ممثلين لطبقات اقتصادية ، يبيعون نداءها ، ويسدوا حاجتها . اسمعوا ما يقوله كارل ماركس في كتابه « بؤس الفلسفة » : « إن روابط الاجتماعية متصلة اتصالاً وثيقاً بقوات الإنتاج ، فالناس إذا حصلوا على قوات منتجة جديدة يغيرون طرق الإنتاج ، وإذا غيروا طرق الإنتاج وغيروا كذلك نظام كسبهم للمعير فقد غيروا في جميع روابطهم الاجتماعية . هذه هي طاحونة المواد تنبت وسطاً أقطاعياً يسوده التبلد . أما الطاحونة التي تدور بالبخار ، فتنتب وسطاً صناعياً يسوده أصحاب رؤوس الأموال . ونفس الرجال الذين يقيمون روابطهم الاجتماعية على مقتضى الطرق المادية للإنتاج هم الذين يصوغون أيضاً المبادئ والأفكار والحدود وفقاً لروابطهم الاجتماعية »

فالعوامل الاقتصادية التي تصنع التاريخ في رأي ماركس وانجلز هي وسائل الإنتاج ، يضاف إليها وسائل النقل وتداول الثروة والبيئة الجغرافية التي تقوم فيها هذه العوامل الاقتصادية وكل هذه العوامل الاقتصادية تدور حول نقطة واحدة ، هي الكفاح ما بين الطبقات . فالكفاح ما بين الطبقات يسود جميع النظم الاجتماعية : يسود النظام السياسي ، وما تاريخ الحكومة إلا تاريخ نضال مستمر ما بين طبقة وأخرى تتداول

وإلا سكرة الوحدة المادية للحياة توجد فكرة الحتمية ، سير لا تخير ؛ وكل ما يقع في العالم من حوادث هو من الإنسان ، ولكنه عمل دفننه إليه الظروف دفماً ، فلا اختيار له فيه ولا إرادة . ويقول لنا انجلز شريك ماركس في تأسيس المذهب الاشتراكي الحديث : لا تظنوا أن الحركات الفكرية الكبرى التي تظهر من وقت لآخر هي وليدة أفكارنا ، بل هي وليدة الظروف الاقتصادية الملائمة ، كان لا بد من وجودها فوجدت ، وسخر لها أناس يقولون بها . ولو أن مارتن لوتر مؤسس البروتستانتية لم يوجد لوجد لوتر آخر يدعو إلى مادها إليه لوتر الأول . وماركس نفسه ، إذا كان قد قال بالمادية التاريخية فذلك لأنها فكرة ولدتها ظروف البيئة الاقتصادية ، وكان حتماً أن يقول بها رجل أراد القدر أن يكون ماركس . وأبطال التاريخ يولدون كما تولد الحركات الفكرية الكبرى ، تنتسبهم الظروف الاقتصادية ؛ فنابليون وكرومويل وقيصر وغيرهم من عظماء التاريخ جاءوا في الساعة التي كانوا لا بد أن يجيئوا فيها ، ولو لم يجيئوا هم بالذات لجاء غيرهم ، فيتغير الاسم ويقي الرجل . وكل عصر له أبطاله ، إذا لم يجدهم عفواً فإنه يخلقهم خلقاً . وإذا لم توجد البطولة الحق في الرجل الزعيم ، فإن حاجات الوقت المادية والمصالح الاقتصادية تنفخ فيه روح بطولة مصطنعة وتجعل منه رجل الساعة . هذا هو رأي انجلز في البطولة والأبطال فالعظمة ليست إذن إلا صنع الجليل وبنيت البيئة . أما العوامل الحقيقية التي تصنع التاريخ صنماً ، فليست هي بطولة العظماء ، إنما هي القوات الاقتصادية ، تبدأ في تغيير الفكر البشري ، ثم تدفعه إلى الأمام . وهكذا يرتبط الفكر بالعمل ، ويسوق ذلك إلى هذا . ومصدر كل من الفكر والعمل إنما هو العامل الاقتصادي ، مثل ذلك تقدم الصناعات الكبرى وتكدس رؤوس الأموال . هذا هو العامل الاقتصادي الذي يحكم العالم في العصر الحاضر . وقد أوجد هذا العامل طبقة أصحاب رؤوس الأموال ، أو البورجوازية ، قوية مسيطرة على أقدار العالم . ولكن هذا العامل الاقتصادي نفسه أوجد أيضاً طبقة المال تستغلهم البورجوازية وتسلبهم عمرة جهودهم . هذا الوضع الاقتصادي هو الذي أوجد حركة فكرية عند طبقة المال ، وقد شمرها بالظلم يهيق بهم . وهذه الحركة الفكرية هي التي تدفعهم إلى العمل .

حيث قامت البلشفية في روسيا ، وأصبحت الاشتراكية مذهباً عملياً لنظام قائم من الحكم ، أقامه لينين على أقباض القيصرية ، بعد أن اقتلعها واجتذها من أصولها . وأوجد انقلاب سنة ١٩١٧ النظام السوفييتي في روسيا في ظروف معروفة ، ولا يزال هذا النظام قائماً في روسيا حتى الآن

ويذكرنا القرن العشرين ، بالنسبة لقيام الاشتراكية وانتشارها في العالم برغم مقاومة الحكومات لها بالقرن التاسع عشر ، بالنسبة لقيام الحركات الوطنية وانتشارها في أوروبا برغم مقاومة الحكومات الرجعية لها . والشبه غريب بين الحرب الكبرى وحروب بلبليون ، وبين مؤتمر فرسايل المحافظ ومؤتمر فينا الكبرى على أننا نريد أن نبسط الحقائق كاملة ، فليس من الدقة في شيء أن نقول إن الاشتراكية بقيت وحدها في الميدان ، بل يجب أن نفتتح أعيننا على ما يجري الآن أملنا من صراع عنيف بين الاشتراكية والوطنية . فان الحركات القائمة على رابطة الوطن ورابطة الجنس لم تخمد جذوتها في أوروبا ، بل هي قد زادت اشتعالاً . وكأن حرب الطبقات التي شهرتها البلشفية في وجه العالم ، تلك الحروب الشعواء التي أذكي نارها العمال ثم صاروا لها وقوداً ، وهم يريدون من ورائها أن يبسطوا سلطانهم ، وأن يحكموا بالسيف والنار ، تلك الحرب الضيقة القاسية قد استفزت دعاة الوطنية في أوروبا وألبتهم فوقوا صفوفاً متراساً أمام هذا العدو المشترك . ووقعت الواقعة ، ونشب عراك دموي بين دعاة الاشتراكية ودعاة الوطنية ، وانضوى دعاة الوطنية في أفوى مظهر من جهادهم تحت لواء حركتين مشهورتين : هما الفاشية الإيطالية تحت قيادة موسوليني ، والنازية الألمانية تحت قيادة هتلر . ووقف كل من هاتين الحركتين سداً منيعاً أمام تيار البلشفية الجارف ، ووقف كل منهما يريد أن يبسط سلطانه .

وترجمه الكلام فيهما إلى المحاضرة القادمة

عبد الرزاق السهروري

بقيادة والسلطان ؛ يسود النظام القانوني ، وما القانون إلا صورة مكسوة من وسائل الانتاج الاقتصادي ، وهو لم يوجد إلا لحماية مصالح الاقتصادية ، أي حماية مصالح الطبقة السائدة ؛ يسود الذين للفلسفة والأدب والأخلاق ، وإذا لم يكن الأصل في هذا كله مالاً اقتصادياً فان هذه العوامل الأدبية تتطور بمد تشوئها وفقاً بحاجات الاقتصادية ولمصالح التقلب من الطبقات

ثم ينتقل ماركس وانجلز من بسط النظرية إلى تطبيقها على لحوادث التاريخية . ففندما أن النظام الأقطامي هو الذي خلق لصور الوسطى تسود فيها طبقة النبلاء ، وأن نظام الصناعة لكبرى هو الذي خلق المصور الحديثة تسود فيها طبقة البورجوازية ، وأن الكارثة لا بد وانفة : والكارثة لفظ له مدلوله في إنجيل الاشتراكية ، فالاشتراكيون يتربصون الدوائر بالبورجوازية ، ويترقبون الوقت الذي سيحين لانتقال عثم إلى عصر جديد تحمل فيه الكارثة بالبورجوازية على يد العمال

فماركس يستغل إذن نظريته في المادية التاريخية ليخدم بها مذهبه الاشتراكي ، فينادي بالكفاح ما بين الطبقات ، ويحاول أن يوحد العمال في جميع أنحاء العالم ، ويشعلها حرباً زبوا بين بني الانسانية جماء ، حرباً تقوم لا بين وطن ووطن ، ولا بين جنس وجنس ، بل بين طبقة وطبقة : بين البورجوازية والعمال ، فتسقط البورجوازية ويسود العمال

ونحن لانعرض بنقد أو بتحييد للمذهب الاشتراكي ونقتصر على أن نستخلص مما قدمناه أن هناك نزعة في أوروبا وجدت منذ القرن التاسع عشر وقالت برابطة الطبقات ، وعارضت الروابط البنية على الوطن والجنس ، واعتبرت العمال في جميع الأوطان ومن جميع الأجناس إخواناً متآلفين . وهم جميعاً خصوم للبورجوازية في جميع الأوطان ومن جميع الأجناس . وقد أخذت هذه النزعة تشتد شيئاً فشيئاً طوال القرن التاسع عشر ، ثم دخلت في دور عمل حاسم أثناء الحرب الكبرى ،



بالعرض ... بالديته ...
مخازن البن البرازيلي